

في بحار الجمالية / ج 1



يعتبر عامل الجمال من العوامل الداعية والجالبة للإيمان التوحيدى فالإنسان محبوّل على حبه يقترب من الشيء المنظم وينأى عن منه وبيه يسمو ويتكامل، يعرج إلى ناشر الجمال بواسطة آياته المنتورة في الموجودات وبفقدانه يتداوى ويتتسافل ويصطف مع البهائم وإلى ما دونها مستوى.

1- لكلّ شيء أساس وقد شاء الربُّ الجميل المتعالي أن يودع في مخلوقاته أساس التوحيد والجمال والإنسان يرتفق من هذا الجوهر الأساس الفطرة التي تفيض عليه بالصفاء على المحاسن والأعمال الجميلة وبتلك الواسطة النورانية يتصل المخلوق بخالقه كما ويتصل بموجوداته كمحصلة أولية للوصول الأعلى.

هذه الطبيعة بكلّ ما تحمله ينم عن الجمال وابتداً الإنسان بمحاكاة جمالها موظفاً إياه في مسكنه ورسوماته في شعره وأساطيره وفلسفته وموسيقاه وأيضاً في ملبوسه وأكله وهذا ما نجده في تاريخ الشعوب واضحاً ومدلاً على هوية كلّ شعب وأمة بما وصلت إليه آلتـه الحضارية وذوقـه مؤكداً فيها على جهـه وتميـزـه بل وحتى على جـيـروـته وأـنـانـيـته أـحـيـاـناً... إـزـاءـ تلكـ الأـعـمـالـ الفـنـيـةـ علىـ مرـّـ الـحـقـبـ نـفـقـ علىـ مـفـاهـيمـ كـثـيرـةـ لـمـعـرـفـةـ الدـوـافـعـ السـلـوكـيـةـ فـيـ إـنجـازـهـ.

والأخلاق لم تكن بمعزل عن مظاهر الحياة فله حضور في التجارب الفنية المشحونة بالمشاعر والعواطف الروحية بمعنى أنَّ الاحفاء الجمالية في الأعمال الفنية بشتى أنواعها وإن كانت ذاتية الإبداع فلا تعدد كونها وثيقة تعريفية شاملة لسلوك شخص بمفرده أو سلوك مجتمع بأكمله فهي تعدد عن قيم دينية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية بلباس جمالي وكيفية اهتمامه بالطبيعة أو الفن. تمتلك نفسك راحة وسعادة وأنت تحدق بما ينتاب جدول صغير حينما تداعب صفحة مائة أنا مل نسمات مارة بلا جلبة فتري ثغر وجهه يبتسم دون أن تبيان نواجذه وترفرف أحنته بسحور لا يود معه أن يطير بها مستاناً بقيضها وبسطها ويلفت نظرك الشجيرات والنجم المقيمة على ضفتـيه تهـزـ وتصـفـقـ لهـ فيـ حـبـورـ فـتـأـذـكـ أجـواءـ التـسـبـيـحـ هـذـهـ والـجـمـالـ إـلـىـ عـالـمـ سـاحـرـ بلاـ خـطـوـطـ تـحدـهـ.. أما الآخـرـ فـيـرـتـاحـ وـيـتـهـجـعـ عـنـدـ روـيـتـهـ لأـمواـجـ الـبـرـ

الهادرة بأصولات عتية تملأ رعباً وخوفاً.. موقفان متبايان ومنتظمان لطابع جمالي.. حالك وحالك صادر عن نظرة خاصة أم نظرة موضوعية مجردة لا نفعية كما يعبر بعض أصحاب النظريات الجمالية أم هناك غير ذلك؟ في مجال الفنون (نحت، رسم، شعر، موسيقى، رواية، مسرح وغيرها) تختلف النظرة أيضاً ففي الطبيعة والفنون موضوع جمالي ولكن المشكلة في كيفية الوصف وتشخيص وتسويير الموضوع وهذا الذي تبناه النظريات في القول به وبعضها يدعوا إلى النظرة اللانفعية ليتحقق تسويير الموضوع الجمالي وأخرى تجعل من الحالة السايكولوجية للمدرك أمراً تتم به المعرفة في حين تطرق غيرهما إلى القول بأنَّ النظرية الجمالية لابد أن تكون جزءاً من نظام ما وراء الطبيعة.

كلَّ نظرية اتجهت طبعاً من منظورها الزمني المعاش وال فكرة المفضلة، ونحن أمام الخوض النظري في الجماليات تستشف أنَّ الإنسان لا يمكن منعزلًا عما يسمى بـ(اللأنفعية) للتمكن من فهم الموضوع الجمالي بل هما متداخلان حقيقة فالجمال واحد في كنهه مختلف في صوره ويحصل لنا الاستنتاج بحقيقة أنَّ العالم منظور في الإنسان والعلاقات الجمالية كلُّها متشابكة في النفس فكان من الأفضل للدراسات الجمالية أن تنفذ طروحاتها لترجمة التجارب والإحساسات انطلاقاً من النفس وإليها كي تهب إلى عالمها الإنساني الفسيح والدعوة إلى تهديبها من خلال العامل الجمالي.

2- إنَّ القرآن الكريم كتاب توحيد يربط كلَّ مظاهر الحياة وعلومها بهذا المبنى التوحيدى فكلَّ آياته جميلة لأنَّ فيها أنفاس الوحدانية وهو حين يقول بالبيانات المعتبرة عن التوحيد يمزج معها الجمالية مما يدل على أنَّه من مظاهره الان ستجد ببساطة طاهريَّة أنَّ القيمة الجمالية والموقف الجمالي يعتمد على درجات ارتباط التضمن وكذلك الإحساس بالمصدر الأوَّل للجمال وهو ۱۰ جلَّ شأنه وسواه يجري على النزول إلى الأدنى المرتبط بالأعلى وهكذا يصدر التفسير من نقطة توحيدية لا بديل عنها ولا أثبت منها ولا أرقى. ومن هذا المنظور نركِّز على بعض الملاحظات الجمالية من القرآن الكريم.

المرحلة الأولى: بعض علماء الكلام يذكرون آيات قرآنية معينة ملقين الضوء على الصور الفنية التي تحتويها وهذا ذكر طيب يمدنا بحقيقة أنَّ الكتاب العزيز كلَّه جمال فني بالرغم من تباين الآيات في روحيتها وموضوعها وقوتها البينية.. وفي المقدمة تأتي آية (بسم الله الرحمن الرحيم) التي يبتدئ بها كلَّ شيء جميل معلنة أنَّ الملك والبداء الله سبحانه و منه وإليه فيفوح من نورها أريح الجمال الحقيقي. الآية المذكورة تلفت انتباهاك أنَّ الوجود بمراتبه ومستوياته هو في غاية الجمال فلا تغفل عنه لا ببصرك ولا بقلبك وإنَّ خالق الأكون هو الله لا إله إلا هو والشهادة بألوهيته الفردانية هل أصل الشهادة فلو كان للخلق إله آخر أو آلهة لعم الفساد والخراب والتنافس السلبي وتلك قباحة شهادة الجمال بها تشهد الموجودات بأسرها ولذلك فإنَّها سائرة بنظام تام والنظام هو الجمال.

المرحلة الثانية: من الأدلة التوحيدية آية خلق السماوات (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ
بُرُوجًا وَرَيَّنَاهَا لِنَذَّاتِنَّا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَانِ رَجَيمٍ) (الحجر/ 16-17)، صورة جميلة لا يحدها وصف فالسماء بعد أن وصفها الله تعالى زينها وحملها بتلك الكواكب وهو منظر يبهر العيون وتستأنس به النفس وبالآية حكمة عظيمة فال MCSA بح الجميلة هذه تقوم بالوقت نفسه بمطاردة الشياطين الذين يحاولون الاستراغ إلى السماء وبالها من حكمة تعلمنا بإمكانية أخرى للجمال وهي محاربة الرداءة والقباحة فنطاردتها معلنة أنَّ السيادة للجمال وحده وأنَّ القباحة قلقة خائفة وبالتالي زاهقة هذا وقد آثرنا الصفح عن الاستطهارات الأخرى لهذه الآية الكريمة ولغيرها لأقصارنا على الأطلال من النافذة الجمالية فقط.

المرحلة الثالثة: ينقلنا القرآن الجميل إلى الأرض فيقول تعالى: (وَالْأَرْضَ مَدَدَ زَاهَدَ
وَأَلْقَبَنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (ق/ 7). فهذا المد الممهد والجبال السامة والنبات البهيج المتعدد الأصناف والأشكال كلَّها مفعمة بالجبال الذي يدعو إلى التوقف والتفكير والاقتراب إلى خالقها وليس لللوقوف عندها والقعود على مشارفها فهي زينة ابتلاء (إِنَّا جَعَلْنَا مَاءَ لَهَا لِنَدَبِلُ وَهُمْ أَيُّهُمْ أَحَسَنُ
عَمَلاً) (الكهف/ 7). هذه الزينة الفارهة إنما هي لأجل الاعتبار والانتقال إلى العالم الحقيقي الذي يفوق جماله الوصف كما تشبهه الآية الشريفة (مَثَلُ الْجَنَّةِ الْمَقْعُونَ)
(محمد/ 15). حيث لا يرقى إليها تصورنا وما نقرأه وما نسمعه عن الجنان إنما هو لأجل تقرير الوصف الجمالي وليس لاكتناهه. وتخلى إلى القول إنَّ على الإنسان أن يأخذ من جمال الطبيعة ما يحمل به نفسه، يحمل به أعماله عملاً أنَّ هذا الاعتبار والتدوق والتعيش الجمالي لا يتوقف على مَنْ له تصيب من العلم أو مطلع أو واسع للنظريات الجمالية بل هو من نصيب كلَّ الناس وعلى درجات كما يستفاد من الآية الكريمة (وَالْأَرْضُ أَمَّا خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْءُ وَمَذَاجٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ *
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَرِينَ تُرْيَحُونَ وَحَرِينَ تَسْرِحُونَ) (النحل/ 5-6)، من إشارة إلى إدراك الجمال والإحساس به فطرياً.. وبذلك تظهر لنا جوانب الجمال وتعدد سُبل ارتباطها بالقدرة الإلهية للبارئ المصوَّر الذي هو أحسن الخالقين تبارك وتعالى.

المصدر: مجلة الكوثر/ العدد 98 لسنة 2005م